الباب الأول

القدس فى عهودها الغابرة

القدس اليبوسية — القدس فى زمن الفراعنة — القدس وبنو إسرائيل — القدس وآشور — القدس وبابل — القدس فى عهد الفرس — القدس فى عهد اليونان — القدس فى عهد الرومان — القدس البيزنطية

القدس اليبوسية

(٣٠٠٠ ق. م)

اليبوسيون بناة القدس الأولون . وكانت على عهدهم تدعى : (يبوس) . إنهم بطن من بطون العرب الأوائل . نشأوا فى صميم الجزيرة العربية ، وترعرعوا فى أرجائها . ثم نزحوا عنها مع من نزح من القبائل الكنعانية . فاستوطنوا هذه الديار . وأغلب الظن أن ذلك حدث حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد .

من ملوكهم : (ملكيصادق) . وهو أول من اختطها وبناها[١] . وكان قبل ذلك يسكن وقومه فى الكهوف . عرف بالتقوى ، فما غشى امرأة ، ولا أراق دماً ، وما أكل سوى الخبز ، وما شرب سوى الخمر . وكان محباً للسلام . حتى أطلق عليه : (ملك السلام) . ومن هنا جاء اسم المدينة : (سالم) و (شالم)[٢] .

ومن ملوكهم : (سالم اليبوسى) . فقد زاد هذا فى بنيانها . وشيد على الأكمة الجنوبية المعروفة فى يومنا هذا بجبل صهيون برجاً بقصد الدفاع عن المدينة . وراحت هذه بعدئذ تعرف باسمها الكنعانى : (أورو — سالم) أى مدينة السلام .

كان الكنعانيون فى بادئ الأمر رعاة . ولما استقر بهم المقام فى هذه البقعة من الأرض سميت باسمهم (كنعان) . فقد كانوا يومئذ متحدين . وكانوا من المنعة والقوة بحيث تمكنوا من صد المصريين ، عندما أراد هؤلاء أن يجتاحوا

---

(١) السير السليم فى يافا والرملة وأورشليم : للآباء الفرنسيسيين ص ٥١

(٢) سفر التكوين . الإصحاح ١٤ العدد ١٨

بلادهم . وكذلك قل عن العبرانيين ؛ فقد صدوهم وقاوموهم زمناً طويلا ، ذلك لأنهم كانوا متحدين .

وكانت مدينتهم (يبوس) ذات أهمية من الناحية التجارية ، واقعة على طريقين من أهم طرق التجارة : واحدة تربط البحر بالصحراء ، والأخرى تربط حبرون[1] ببيت أيل[2] . وفى بيت أيل كانت الطريق تسير فى اتجاهين : واحد نحو شكيم[3] . والآخر إلى أريحا ووادى الأردن .

وكذلك قل عنها من الناحية الحربية . واقعة على تلال مرتفعة ومحاطة بسور منيع . وكان لملكها جيش ، وكان بينها وبين الملوك المجاورين حلف متين .

ولما تفرقت كلمة اليبوسيين ، استغل العبرانيون الفرصة . فراحوا يغزونهم وكادوا يقتحمون مدينتهم . ولم يكن فيها سوى حامية صغيرة . عندئذ استمد حاكمها (عبد حيبا) العون من فرعون مصر تحوتمس الأول (١٥٥٠ ق. م) ليحميه من العبرانيين . ذلك لأن هؤلاء كانوا كلما احتلوا مدينة أعملوا السيف والنار فيها وفى سكانها . وأما المصريون فكانوا يكتفون بالجزية ، فلا يتعرضون لسكان البلاد ومعتقداتهم ولا يصيبونهم بسوء . وركض الفراعنة لنصرتهم كما سنذكر ذلك فى الفصل التالى .

يعتقد المؤرخون أن معظم سكان القرى فى قطاع القدس يرجعون إلى أصل كنعانى ، وأن لغتهم الأصلية كانت كنعانية . وانضمت إليها — عند الفتح البابلى — اللغة البابلية . وظلت هذه اللغة هى الرسمية حتى الفتح الفارسى .

كانوا يعبدون الأصنام ، وصنمهم الأكبر : (بعل) ومعناه الرب .

---

(١) الخليل (٢) (بيتين) من أعمال رام الله (٣) نابلس .

القدس فى زمن الفراعنة

(١٤٧٩ ق. م)

قلنا فى الفصل السابق إن أحد رجال السلطة فى أورو — سالم: (عبد حيبا) أرسل إلى فرعون مصر تحوتمس الأول (١٥٥٠ ق.م) رسالة أبدى فيها خضوعه، وطلب أن يحميه من غارات العبرانيين . هذا ما حدثتنا به ألواح تل العمارنة . إنا لانعلم شيئاً عما فعله هنا تحوتمس الأول . ولكن التاريخ حدثنا أن يبوسا خضعت لفراعنة مصر خضوعاً تاماً فى عهد تحوتمس الثالث (١٤٧٩ ق. م) وأن هذا أقام عليها حاكماً من أبناء مصر . ومن الفراعنة التى كانت لهم جولات فيها أمين حوتب الثالث (١٤١٣ ق.م) . وإخناتون (١٣٧٥ ق. م) وكانت القدس على عهده من ممتلكات مصر الهامة . وتوت عنخ آمون (١٣٥١ ق. م) . وسيتى الأول (١٣١٤ ق. م) . ورعمسيس الثانى (١٢٩٢ ق. م) . وشيشاق (٩٧٠ ق. م) . ونيخو (٦١٠ ق. م) . كان المصريون تارة يطلقون عليها اسمها اليبوسى : (يابيشى) ، وطوراً اسمها الكنعانى : (أورو — سالم) . وقد اتخذوها مخفراً أمامياً لقربها من البادية . فكان لهم فيها قشلاق كبير ، وجند كثيرون ، وموظفون ، وجباة . وكان قصدهم من احتلالها حماية طريق التجارة .

وكانت على عهدهم مليئة بالغابات الكثيفة . ولا سيما ذلك الجزء من البلاد الممتد من الجبال إلى البحر . وكان المصريون يأخذون منها الحطب والأخشاب اللازمة لصناعاتهم .

ولم يحاول المصريون تمصيرها ، بل اكتفوا بتحصيل الجزية من سكانها[1] .

---

(١) (تاريخ سورية) للمطران يوسف الدبس ص ٢٦٢ .

وما كانوا ليكترثوا لعادات القوم وديانـاتهم . لا ، ولا لشؤونهم الاجتماعية الأخرى. وما كانوا ليصدوا أى فريق من السكان عن التحالف مع الفريق الآخر. بل كانوا ينجدونهم فى حروبهم مع أعدائهم . وكثيراً ما تمرد الكنعانيون ، وثاروا على المصريين ، وأبوا أن يدفعوا لهم الجزية . ويظهر أن العبرانيين استغلوا الموقف بعد ذلك ؛ فجاءوا يحاربونهم ، وتمكنوا من احتلال يبوس فى عهد داود (١٠٤٩ ق. م) . كما سنذكر ذلك فى الفصل التالى .

القدس وبنو إسرائيل

(١٠٤٩ ق . م .)

خرج بنو إسرائيل من مصر فى عهد فرعونها رعمسيس الثانى (١٢٥٠ق م) . فاجتازوا بقيادة زعيمهم موسى صحراء سينا . وقد تاهوا فيها أربعين عاماً . حاولوا فى بادئ الأمر دخول هذه البلاد التى أسموها (أرض الميعاد) من ناحيتها الجنوبية ؛ فوجدوا فيها قوماً جبارين . ولما بدلوا طريقهم ، ووصلوا إلى جبال موآب ، شرقى الأردن ، توفى موسى . فتولى قيادتهم يشوع بن نون . فعبر هذا بهم الأردن (١١٨٩ ق. م) واحتل أريحا . فدكها دكاً . وقتل من وجده فيها ، لا فرق فى ذلك بين رجل وامرأة ، شيخ أو طفل[١] .

وكذلك فعل فى (عاى)[٢] و (الجلجال)[٣] و (شيلوح)[٤] والمدن

(١) سفر يشوع : الإصحاح ٦ عدد ٢١ — ٢٥

(٢) إنها خربة (الحيان) الواقعة على مسافة ميلين إلى الجنوب الشرقى من (بيتين) من أعمال رام الله .

(٣) إنها (تليلة الجلجولة) الواقعة على بعد ميل ونصف من أريحا إلى الشرق . وقيل إنها كانت فى الموضع المعروف فى يومنا هذا بالخان الأحمر بين أريحا والقدس .

(٤) على مسافة ثلاثة أميال من لبن إلى الجنوب ، وميل واحد من ترمسيا إلى الشمال الغربى .

الكنعانية الأخرى التى احتلها فى طريقه إلى يبوس . ولكنه لم يتمكن من احتلال يبوس نفسها . إذ كانت هذه محصنة تحصيناً تاماً . وقاومه اليبوسيون .

وحاول بنو إسرائيل : بعد موت يشوع : احتلال يبوس . وزحفوا إليها بقيادة (يهوذا) الذى تزعمهم بعد ذلك ؛ فاحتلوها ، وأشعلوا النار فيها . وقتلوا عشرة آلاف رجل من سكانها . إلا أنهم عادوا ، فأخلوها تحت ضغط اليبوسيين . وظل هؤلاء يهزأون بحملات العبرانيين عدة قرون .

ولما مسح داود ملكاً على بنى إسرائيل (١٠٤٩ ق. م .) وكان يومئذ يقيم فى (حبرون) زحف نحو يبوس بجيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل ، يقوده ابن أخته (يوآب) . وقاومه اليبوسيون فى بادئ الأمر مقاومة عنيفة ، وصدوه عنها . إلا أنه عند ما أعاد الكرة ، وتمكن من احتلال (تل أوفل) الكائن فى جنوبها ، والمطل على قرية (سلوان)[١] ، أصبحت (عين روجل)[٢] بيده . وكانت هذه هى النبع الوحيد الذى يستقى اليبوسيون منه الماء . عندئذ سقطت يبوس بطبيعة الحال (١٠٤٩ ق. م) .

كانت يبوس ، قبل احتلاله لها ، ذات حضارة . وكان فيها منازل متقنة ، حوت الكثير من أسباب الراحة والرفاهية . وكان فيها حكومة وصناعة وتجارة وديانة . فاقتبس العبرانيون[٣] هذه الحضارة من يبوس ، ومن المدن الكنعانية الأخرى التى احتلوها . فغادروا الخيام . وسكنوا فى بيوت بنوها كبيوت الكنعانيين . وخلعوا عنهم الجلود التى كانوا يلبسونها ، ولبسوا بدلا منها ثياباً منسوجة بالصوف كثياب الكنعانيين .

---

(١) (سلوان) القرية الملاصقة لسور القدس من الجنوب .
(٢) هى عين الماء المعروفة اليوم بعين أم الدرج .
(٣) (تاريخ العصور القديمة) لبرستد .

ولما احتل داود يبوس ، وكانت كما قدمنا ، أحيها ، فاتخذها عاصمة ملكه . ولكنه ترك اسمها الكنعانى (أورو — سالم) وأسماها (مدينة داود) . وقد أحصى سكانها ، فثار عليه قومه . ثاروا بتحريض من ولده أبشالوم . فهرب منها . ثم رجع إليها بعد موت ولده .

وتمكن داود بمساعدة نجله الأكبر سليمان من إحباط مؤامرة ثانية قام بها ابنه الرابع آدونيا . ومن الأسباب التى دعت قومه للثورة أنه أحصاهم . فاعتبروه مسبباً للطاعون الذى أصابهم . فقالوا له : الله الذى خلقنا يعرفنا ، فلماذا أحصيتنا ؟

ويظهر أن داود ندم على عمله . إذ راح الشعب ينقض من حوله بعد عملية الإحصاء هذه . ولكى يرضى شعبه ، أبدى رغبته فى بناء هيكل ليكفر عن ذنبه . فابتاع من إرنان اليبوسى أرضه الواقعة على تل موريا[1] وكانت قبل ذلك بيدراً . ابتاعها بخمسين شاقلا من الفضة . وشرع فى بناء الهيكل . ولكنه مات (١٠١٥ ق. م) قبل أن تتحقق أمنيته .

ولما مات داود مسح ابنه سليمان ملكاً . وقيل أن مسحه جرى على مقربة من ماملا . ولقد اتسعت القدس فى عهده وازدهرت . فبنى فيها الدور والقصور . وأتم عمل أبيه ، فبنى الهيكل (١٠٠٧ ق. م) . واتسع ملكه من الفرات إلى تخوم مصر . وعقد معاهدات مع جيرانه . ورأى أن يكون على وفاق مع فرعون مصر ، ليأمن شره . فصاهره وتزوج ابنته . ومن آثاره البناء الكائن تحت المسجد الأقصى ، وبرك سليمان الواقعة إلى الجنوب من بيت لحم .

وفى أواخر حكمه مال إلى عبادة الأوثان . وبنى بيتاً لها على الجبل الكائن أمام الهيكل من الشرق . ويعزو بنو إسرائيل خراب ملكه بعد موته ، إلى عمله هذا .

---

(١) البقعة التى يقوم عليها الآن الحرم القدسى .

بعد موت سليمان (٩٧٥ ق . م) تولى الملك ابنه رحبعام[١] . واقتتل هذا مع أخيه يربعام[٢] فانقسمت المملكة إلى شطرين : (يهوذا) وعاصمتها أورشليم . و (إسرائيل) وعاصمتها (شكيم)[٣]. وراح كل منهما يفرض الضرائب على شعبه ليتغلب على خصمه . ومنع يربعام قومه من زيارة أورشليم .

استغل شيشاق فرعون مصر هذه الفرصة ، فزحف على أورشليم ، واحتلها (٩٧٠ ق. م) . وبعد أن نهب خزائنها ، رجع إلى مصر .

وقصارى القول أن أيام رحبعام كانت كلها حروباً : حرب خارجية مع مصر ، وأخرى داخلية مع أخيه يربعام .

وظلت أورشليم بعد ذلك أربعة قرون ، يحكمها اليهود . فلم تسلم أبداً ، خلال تلك القرون ، من ثورة أو مؤامرة أو شغب أو قتال .

ومن ملوكها : أبيا بن رحبعام (٩٥٨ ق. م) . آسا (٩٥٥) . يهوشافاط (٩١٤) . يهورام (٨٩٢) . آحازيا (٨٨٥) . يهوشع (٨٦٠) . أمصيا (٨٣٩) . عزيا (٧٨٠) . يوثام (٧٥٨) . آحاز (٧٤٢) .

ثم جاء حزقيا (٧٢٦ ق. م) وعلى عهده غزا الأشوريون أورشليم . وقد حصنها ، وجر الماء إليها . ومن بعده جاء ولده منسه (٦٩٨) . آمون (٦٤٣) . يوشيا (٦٤١) وقد قتل هذا من لدن نيخو فرعون مصر .

وكذلك قل عن ولده يوآحاز (٦١٠) الذى كتفه نيخو ، وغرمه ، وأقام مكانه أخاه يهوياقيم ملكاً . ثم ولده يهوياكين (٥٩٩) . وعلى عهده غزا البابليون أورشليم . فافتتحها نبوخذ نصر . وسبى جميع من فيها وأرسلهم إلى بابل .

---

(١) ابن سليمان من امرأته العمونية .
(٢) ابن سليمان من امرأته المصرية .
(٣) نابلس .

حتى الملك نفسه ، فقد أرسله إلى بابل .

أقام نبوخذ نصر على كرسى الملك عمه صدقيا (٥٩٠) . فخضع له هذا فى بادئ الأمر . ثم حاول أن يتملص من سلطته ، فحصن السور ، وبنى الأبراج . إلا أنه فشل . فأسره نبوخذ نصر . وبعد أن فقأ بصره ، أرسله وقومه إلى بابل . وهكذا انقرضت مملكة يهوذا (٥٨٦ ق. م) .

ولما تبوأ كورش عرش الفرس (٥٣٨ ق. م) أذن لمن شاء منهم أن يعود إلى أورشليم . وسمح لهم بتجديد الهيكل ، وبناء المدينة . ولكنه عاد فاسترد أمره ، تحت ضغط العمونيين والأشدوديين والعرب ، ومنعهم من تجديد بناء السور . إذ هدد هؤلاء الملك بالعصيان وقطع العلاقات الودية مع فارس ، إذا هو لم يمتثل لنصائحهم ، ولم يمنع اليهود عن عملهم ، واصفين أورشليم بالعاصية ، قائلين إن اليهود إذا حصنوا المدينة وسكنوها لا يؤدون جزية ولا خراجاً . ولم يتمكن اليهود من بناء السور إلا فى عهد دارا (٤٤٥ ق. م) . وما كان ذلك ليتم لولا حراب الفرس .

ومع ذلك فلم يتمكن اليهود بعد ذلك التاريخ من استعادة كيانهم السياسى . بل راحوا يعيشون كطائفة دينية يرأسها كاهن . وظلوا كذلك زمناً طويلا . إلى أن ظهر المكابيون ، فاستولوا على أورشليم (١٦٧ ق. م) . وقد ظهر منهم خمسة رؤساء هم : متاتياس (١٦٧ ق. م) . يهوذا بن متاتياس (١٦٦) . يوناتان أخو يهوذا (١٦٠) . سيمون أخو يهوذا (١٤٣) . جون هركانس الأول (١٣٤) . وسبعة ملوك هم : أرسطوبولس الأول بن هركانس الأول (١٠٥ ق . م) . الكسندر أخو أرسطوبولس(١٠٤) . الكسندرا امرأته (٧٧) . هركانس الثانى بن الكسندر (٦٩) . أرسطوبولس الثانى بن الكسندر (٦٧) . هركانس الثانى للمرة الثانية (٦٢) . أنتيكانس بن أرسطوبولس الثانى (٣٧ ق. م) .

ومن الحوادث الجديرة بالذكر فى عهد المكابيين أن النقد المعروف بالشاقل ضرب فى أيام سيمون . وأن القلعة الواقعة فى الزاوية الشمالية الغربية من منطقة الهيكل بنيت فى عهد جون هركانس الأول ، وكانت يومئذ تدعى بارس[١] .

وكان عهد المكابيين مليئاً بالمشاغبات الداخلية . حتى إن أرسطو بولس الأول بن هركانس سجن أمه ؛ وأماتها جوعاً[٢] . ثم قتل أخاه أنتيكانس خشية أن ينازعه الملك . وذاقت أورشليم على عهد أخيه الكسندر مرارة الفوضى والحروب الأهلية . وتنازع الأخوان أرسطوبولس الثانى وهركانس الثانى ؛ فراح كل منهما ينشد مساعدة دولة من الدول المجاورة لها . أما هركانوس فراح يستنجد ملك العرب أريطاس (الحارث) . وأما أرسطوبولس فقد استمد القوة من روما . فكثرت الأحزاب ، وساد الفساد بين اليهود . وراح جم غفير منهم يطلبون من بومبى إمبراطور الرومان أن يريحهم من شر الاثنين ؛ بل من جشع الحزبين المتنافسين : الفريسيين والصدوقيين . فاهتبل بومبى هذه الفرصة ؛ وجاء ، فقضى على استقلالهم (٦٣ ق. م) . وبعمله هذا قضى على حرية الشعب اليهودى قضاء تاماً . وراح اليهود بعد ذلك يعيشون فى ظل الشعوب والأمم الأخرى .

---

(١) هو البناء الذى وسعه هيرودس بعدئذ ، وأسماه (برج أنطونيا) . والمعتقد أنه كان يقوم فى المكان الذى تقوم عليه (مدرسة الروضة) فى يومنا هذا ، إلى الشمال الغربى من سور الحرم .

(٢) "Jerusalem" by Lionel Cust p. 79

القدس وآشور

(٧٣٠ ق. م)

غزا الأشوريون أورشليم بقيادة ملكهم شلمنصر (٧٣٠ ق. م) . فسبى هذا سكانها ، وظل يحاربهم حتى سنة (٧٢١ ق. م) . غير أنه لم يتمكن من تثبيت أقدامه فيها زمناً طويلا ، فارتد عنها . وظلت هى والقسم الجنوبى من فلسطين راضخة لسلطان الفراعنة . ولم تدخل أورشليم فى حكم الأشوريين إلا على عهد سنحريب . إذ أرسل إليها هذا قائده المشهور ربشاقى[1] فحاصرها (٧١٣ ق. م) . وراح يدك أسوارها ، ويضيق الخناق على سكانها . وقد نصب مخيمه فى موضع إلى الشرق من بركة ماملا . ولم يقعد بنو إسرائيل عن دفع الأذى عنهم . فاتبعوا نصيحة ملكهم حزقيا الذى أمر بتحصين السور . وحفر نفقاً طوله ١٧٠٠ قدم بين عين أم الدرج فى سلوان وداخل المدينة . كما أسال الماء من بركة ماملا إلى بركة سميت باسمه فيما بعد (بركة حزقيا) . وهى التى تسميها اليوم (بركة حمام البطرك) فى حارة النصارى .

ولكن لا هذه المشروعات التى قام بها حزقيا ،ولا أسوار أورشليم ، حتى ولا الخطب التى ألقاها أشعيا النبى من أجل تحميس الجماهير وتحريضهم على القتال . . . كان كافياً لإنقاذ أورشليم من الأشوريين الذين جاءوا بجيش لجب يبغون احتلالها . لولا الطاعون الذى ألمّ بهم فى ذلك الحين ، حتى كاد يقضى عليهم . فرجعوا إلى بلادهم .

---

(١) وفى رواية أخرى ريساكس .

ثم عادوا ، بعد حين ، فاحتلوها . واعتقلوا ملكها منسه . وأرسلوه إلى بابل مصفداً بالأغلال (٦٧٨ ق. م) . ولكنهم عادوا ، فأطلقوا سراحه . ورجع إلى أورشليم . فبنى سورها الثانى (٦٤٤ ق. م) .

وبعد قليل دب الفساد فى صفوف الأشوريين ، فضعفوا . وتخلوا عن هذه البلاد إلى البابليين .

فاق الأشوريون البابليين والمصريين من حيث التنظيم الإدارى . ولكنهم لم يعنوا بالشؤون الصناعية والتجارية . وكان جل اهتمامهم منصرفاً إلى سلب البلاد . فجمعوا ما فيها من ذهب وفضة . وكانت هذه المدينة على عهدهم تدعى : يورو — سالم ، أى مدينة الرب سالم . وفى بعض الآثار الأشورية ذكرت بهذا الاسم : أور — سا — لى — امو . وهذا متحدر عن اسمها باللغة الآرامية .

القدس وبابل

(٥٩٩ ق . م)

عندما تقلص ظل الأشوريين عن أورشليم ، راح البابليون من جهة ، والمصريون من الجهة الأخرى ، يتنازعون السيادة . وكان على سكان أورشليم ومملكة يهوذا أن يختاروا أحد الفريقين . وكان على رأس الحكم فيها يهوياقيم[1] . فخضع هذا لنبوخذ نصر ، وسلمه المدينة (٥٩٩ ق. م) ، وعاش عبداً له[2] .

---

(١) (النهج القويم فى التاريخ القديم) لطارق بورتر أستاذ التاريخ فى الكلية الإنجيلية . طبع فى بيروت سنة ١٨٨٤ م .

(٢) سفر الملوك الثانى : ٢٤ — ١

بعد ثلاث سنين ، عاد فتمرد عليه . فأقاله نبوخذ نصر ، وأقام مقامه ابنه يهوياكين (٥٩٧) . ثم عاد فأقال هذا أيضاً بعد ثلاثة أشهر ؛ فنفاه مع عدد من عظماء قومه إلى بابل ، وأقام مقامه صدقيا .

تعاون صدقيا بادئ ذى بدء مع البابليين . ثم عاد ؛ فانتقض عليهم . عندئذ ساق نبوخذ نصر عليه قائده نبوزردان[1] . وجاء هو من ورائه فحاصر أورشليم (٥٨٧ ق. م) . وذاقت المدينة فى هذا الحصار الأمرين : جوعاً ومرضاً . إلى أن اختار اليهود جانب الهرب . فثلموا السور . وهربوا . وكان صدقيا على رأس الهاربين . فلحق بهم الكلدانيون . وأتوا بهم إلى ملكهم نبوخذ نصر . ففقأ هذا عين صدقيا ، وأرسله إلى بابل .

بعدئذ نهب نبوخذنصر أورشليم ، ودك سورها ، ودمر الهيكل الذى بناه سليمان ، وأجلى شعبها إلى بابل . فقتل منهم من قتل ، واستعبد من لم يقتل. وهكذا انقرضت مملكة يهوذا (٥٨٦ ق. م) وراحت كلمة بابل هى العليا فى أورشليم . وكان البابليون يسمونها : أورو — سالم . وأصبحت هذه البلاد كلها ، من أدناها إلى أقصاها ، مستعمرة بابلية ، تدفع الضرائب لبابل ، وتتكاتب معها . وانتشرت اللغة البابلية . وظلت هذه لغة البلاد الرسمية حتى الفتح الفارسى . وأما اللغة التى كانت دارجة بين السكان ، فقد كانت الكنعانية .

---

(١) (تاريخ الأمم والملوك) للطبرى ج ١ ص ٣٨٢ .

القدس فى عهد الفرس

(٥٣٨ ق. م)

بعد أن تغلب كورش ملك الفرس على البابليين (٥٣٩ ق. م) ، سار فى فتوحاته قدماً حتى احتل سوريا . ثم جاء إلى أورو — سالم ، فاحتلها (٥٣٨) . والقائد الذى احتلها باسم الفرس هو : غوبرياس .

تنفس اليهود الصعداء فى عهد كورش . ذلك لأنه تزوج من يهودية[1] ، هى إستير أخت زربابيل بن شلائيل بن يهوياكين بن يهوياقيم ملك اليهود الذى ذكرناه فى موضع آخر من هذا الكتاب . وطلبت منه امرأته أن يأذن لقومها الذين نفاهم نبوخذ نصر إلى بابل بالعودة إلى أورو — سالم . فأذن لهم (٥٣٨ ق. م) . فعاد إليها فريق منهم . وآثر الآخرون البقاء حيث كانوا .

بعد كورش اعتلى عرش الفرس أرتحشستا (٥٢٢ ق. م) فأراد هذا أن يحول دون رغبات اليهود . ذلك لأن العرب والأمم المجاورة لهم فى ذلك الحين كالحوريين والعمونيين اعترضوا على ذلك . وهددوا أرتحشستا بالعصيان . فأصدر أمره بوقف حركة البناء التى أقاموها فى الهيكل . ولكن دارا ، خال كورش ، الذى خلف أرتحشستا فى الملك ، أتاح لهم ذلك (٥١٩ ق. م) . فبنوا السور ، وأتموا بناء الهيكل الثانى (٥١٥ ق. م) . وفى عهد أرتاكسركس الأول (٤٦٥ ق. م) عين نحاميا حاكماً على أورو — سالم (٤٤٥ ق. م) . وكان هذا من أنصار الفرس . فمنحه الملك سلطة واسعة . وسمح له أن يبنى ما تهدم من السور .

---

(١) (تاريخ مختصر الدول) لابن العبرى ص ٨١ .

ظلت أورو – سالم تابعة لملوك الفرس ؛ تدفع لهم الضرائب والعوائد ، وتسهل لهم سبل العبور إلى مصر حتى احتلها الفاتح المقدونى الكبير الإسكندر (٣٣٢ ق. م)[١] .

كان الفرس ، فى عهد كورش ، متقشفين : يعيشون على الخبز والماء ، وعلى شىء من البقول . وكانوا جهلاء : يتزوج الأخ أخته ، والأب بنته ، والابن أمه . ولكنهم كانوا فى الوقت نفسه أقوياء : لهم جيش منظم . وكان ملوكهم مطلق الإرادة . وفى عهد دارا قيدا الملك بمجلس مهمته إسداء المشورة ، وموظف لقبه (حامل التاج) ومهمته إيقاظ الملك فى كل صباح .

كانت لهم فى بادئ الأمر نقود مسكوكة من معدن الألكتروم . ولما توسعوا على عهد دارا ، وأصبحوا سادة مناجم الذهب فى الهند شرعوا يضربون نقودهم من معدنى الذهب والفضة . كانوا فى بادئ الأمر أقوياء . غير أنهم عندما فتحوا الأمصار ، واختلطوا بالقبائل الغريبة عنهم ارتخت عزائمهم ، وتغيرت طبائعهم ، وجنحوا إلى حب الملاهى ورغد العيش[٢] .

---

(١) (مختصر التواريخ القديمة) للقس بولس رحماني ص ١٦٩ .

(٢) يحسن بك ، أيها القارىء الكريم ، أن تقرأ بعد هذا الفصل ، ما كتبناه عن غزو الفرس للقدس فى عهد كسرى الثانى (٦١٤ بعد الميلاد) .

القدس فى عهد اليونان

(٣٣٢ ق. م)

احتل الفاتح المقدونى الكبير إسكندر[١] يروشاليم عام ٣٣٢ قبل الميلاد ، وكان رجال الفرس من حاميتها قد انسحبوا منها . فدخلها دون أن يسفك دماً من أجلها . واستقبله سكانها بالرضا والارتياح . ذلك لأنهم كانوا قد سئموا الفوضى من جراء اختلافاتهم الداخلية .

عندما زحف الإسكندر صوب المدينة كان معه أربعون طبلخانة[٢] . ويقدر بعض المؤرخين هذه القوة بأربعين ألفاً . وكان ينوى تدميرها . إلا أن اليهود هرعوا لاستقباله فى ظاهر المدينة ، يتقدمهم الشيوخ والكهنة ، لابسين حللا بيضاء ، وراحوا يتضرعون إليه ، طالبين العفو . وأراه الكاهن الأكبر سفر دانيال ، وقد جاء فيه أن أحد ملوك اليونان سيتغلب على الفرس ، وسيقوض عرش الأكاسرة . . . فسكت ولم يبطش بهم . لا ، بل أقر عاداتهم التى ورثوها عن آبائهم ، وأمرهم أن ينخرطوا فى جيشه ، وأعفاهم من دفع

---

(١) إنه إسكندر الثالث بن فيليب الثانى ملك مقدونيا وأوليمبيا . ولد عام ٣٥٦ ق م . وتعلم على يد الفيلسوف اليونانى الشهير أريسطوطاليس . إنه (ذو القرنين) الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم : « ويسألونك عن ذى القرنين ، قل سأتلو عليكم منه ذكراً . إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً » . سورة الكهف الآية ٨٣ .

(٢) (بيت الطبل) ويشتمل على طبول متعددة معها أبواق وزمارات . وتكون معه فى الأسفار والحروب .

الجزية ، وأتاح لهم أن يسكوا نقوداً . وكانت القدس على عهده تدعى : يروشاليم . ثم راحت تدعى : هيروسليما .

ولما مات الإسكندر (٣٢٣ ق. م) اقتسم قواده الملك : فأخذ (سلوقس) سورية ، وأسس فيها دولة السلوقيين . وأخذ (بطليموس) مصر وأسس فيها دولة البطالسة . وكانت هيروسليما من نصيب البطالسة .

حكم بطليموس اليهود رغم أنوفهم . وأرادوا مقاومته ، إلا أنهم لم يفلحوا . إذ ساق عليهم جيشه ، ففتح هيروسليما ، ودك قسما من حصونها . وبطش بسكانها . فأرسل منهم مئة ألف أسير إلى مصر (٣٢٠ ق. م) .

واستخدم بطليموس يهودياً يدعى (يوسف بن طوبياس) مديراً للمال ورئيساً للجباة . فجمع هذا الضرائب بالقوة ، وذاق الناس على يده مرّ العيش .

انتقلت هيروسليما من حكم البطالسة إلى حكم السلوقيين عند ما احتلها أنطيوخس ابيفانس (١٦٨ ق. م) . وقد هدم هذا أسوارها ، ودك حصونها ، ونهب هيكلها فنصب فوقه التماثيل ، وقتل من اليهود ثمانين ألفاً فى ثلاثة أيام ، وحظر عليهم الختان ، وأرغمهم على انتهاك حرمة السبت ، وأكل الخنزير . وكان دليله فى معظم فعاله منلاوس رئيس أحبار اليهود الذى خان قومه من أجل الوصول إلى منصبه . ولم يتمكن اليهود من مقاومته فى بادئ الأمر ، إذ كانت حامية المدينة مؤلفة من عشرين ألف جندى سلوقى .

بعد وفاة أنطيوخس الرابع تولى الملك ولده أنطيوخس الخامس (١٦٤) . ولما كان هذا صغيراً ، تولاه ليسياس الوصى على العرش (١٦٢) . وتآمر هذا مع سكان يافا على اليهود . فأغرق عدداً كبيراً منهم فى البحر ، وثار اليهود عليه . فساق عليهم جيشاً لجباً ، وحاصر هيروسليما . ولكنه ارتد عنها بسبب الثورة التى نشبت فى سوريا والتى انتهت بانتصار خصمه ديمتريوس الأول الملقب بـ (سوتير) .

أقام ديمتريوس على رأس الإدارة فى هيروسليما : (بكيديس) . وقلد (الكيمس)[1] رئاسة الأحبار . ووضع تحت تصرف الاثنين جيشاً كبيراً ليحكما به البلاد . وقامت بين الفريقين حروب ، سالت فيها دماء غزيرة .

وخلف بكيديس فى الإدارة : (نكانور) . وقامت على عهد هذا أيضاً ، حرب جديدة بين اليونانيين والمكابيين . وقتل نكانور . فأرسل ديمتريوس إلى هيروسليما الوالى السابق بكيديس ورئيس الأحبار الكيمس . فجاءا على رأس جيش كبير . وتجددت الحروب . وقتل يهوذا المكابى (١٦٠ ق م) . وألقى القبض على عدد من أبناء الزعماء وأرسلوا إلى رومة . فهدأت الثورة .

وقام بعدئذ خلاف شديد بين الحكام اليونانيين : ديمتريوس ومنافسه الإسكندر بن أنطيوخس أبيفانس . فاستغل المكابيون هذا الخلاف والتنافس ، وراحوا يبحثون عن الوسائل التى تضمن لهم النصر . أما الإسكندر فقد اعترف بيوناثان الذى قاد المكابيين بعد مقتل أخيه يهوذا ، رئيساً للأحبار . وأما ديمتريوس فقد وعد سكان هيروسليما بأن يعفيهم من الجزية ، ومن بعض الضرائب والمكوس . كما وعدهم بأن تكون مدينتهم مقدسة وحرة ، وأن يطلق سراح المعتقلين ، وأن يعفو عن المجرمين .

ولئن كانت كفة الإسكندر هى الراجحة ؛ إذ انتصر على خصمه ديمتريوس (١٥٠ ق م) ؛ إلا أن المكابيين كانوا فى الحقيقة هم الناجحون . إذ أنهم استغلوا ذلك التنافس ، فاستقلوا . ولكن استقلالهم لم يدم طويلا . إذ اختلفوا فيما بينهم ؛ وقامت حروب أهلية ، جعلت كل واحد من الأخوين (هركانس وأرسطوبولس) يستنجد بدولة من الدول المجاورة لهم . الأمر الذى فصلناه

---

(١) يهودى من بنى هرون الذين لا يستحقون الرئاسة . كان اسمه (يواقيم) فاستبه له بالكيمس تشبهاً باليونان . وهو الذى حرض الملك ضد المكابيين . وكان السبب فيما جرى بعدئذ من حروب .

فى موضع آخر من هذا الكتاب . فاهتبل بومبى هذه الفرصة وجاء إلى هيروسليما فاحتلها (٦٣ ق. م) .

قبل أن نختم هذا الفصل نرى لزاماً علينا أن نقول كلمة عن الطابع الذى تركه احتلال اليونان فى هذه البلاد :

(ا) انتشر العنصر اليونانى فى البلاد بكثرة ، وامتزج اليونانيون بسكان البلاد الأصليين ، وناسبوهم .

(ب) انتشرت اللغة اليونانية ، حتى أصبحت لغة البلاد الرسمية ، ولغة العلم والمدارس. وأما اللغة التى كانت يومئذ دارجة بين الناس فهى الآرامية .

(ج) اقتبس سكان البلاد الأصليون الصناعات اليونانية ، ولا سيما صناعة الفسيفساء .

(د) انتشرت الحضارة اليونانية . وقد أسس اليونان المدارس . وعن هذه الطريقة نشروا آدابهم وتقاليدهم ومعتقداتهم الدينية .

(هـ) انتشرت النقود اليونانية[1] . وكانت على عهد الإسكندر بديعة السك والنقش .

(و) انتشرت التجارة اليونانية . واقتبس سكان البلاد عن اليونانيين كثيراً من معاملات الصرافة .

---

(١) (مجلة الآثار) للأستاذ عيسى إسكندر المعلوف ٥ — ٩ ص ٤٦٢ .

القدس فى عهد الرومان

(٦٣ ق. م)

قلنا فى آخر الفصل الذى سبق إن المكابيين الذين سيطروا على مقدرات هيروسليما زمناً عادوا فتضعضعوا . وإن بعضهم راح يدس الدسائس للبعض الآخر . وإن أرسطوبولس المكابى أخذ التاج عنوة (٧٠ ق. م) من أخيه هركانس الثانى . وأنه قامت بين الأخوين حرب أهلية كان من نتائجها أن تدخلت روما فى الأمر . فجاء بومبى ، واحتل هيروسليما (٦٣ ق. م) .

حاصر بومبى هيروساليما ، قبل فتحها ، ثلاثة شهور.

قال يوسيفوس إنه كان هناك ، بين حارة صهيون ومنطقة الهيكل ، جسر هدمه بومبى . وظل يضرب المدينة بالمنجنيقات حتى أحدث ثقوباً فى أسوارها . وهكذا تمكن من احتلالها واستباح حمى الهيكل . وقتل من السكان خلقاً كثيراً . كانت تسمى عند الفتح هيروسليما . ثم راحوا يسمونها هيروساليما .

أقام بومبى حاكماً على المدينة اسمه (أسكورس) . استقبله اليهود بادئ ذى بدء بالترحاب ، إذ أنقذهم من الفوضى . ولكنهم عادوا ، فانقلبوا عليه . فألغى مجمعهم . وهدم السور . وفرض عليهم أن يقدموا فى كل يوم ذبيحة أمام الهيكل ، تكريماً لقيصر ولروما . ففعل اليهود ذلك مكرهين . ونكل بهم الوالى الرومانى شر تنكيل .

وعلى عهد يوليوس قيصر (٤٩ ق. م) تنفس اليهود الصعداء . إذ ولى عليهم (أنتيباتر) الآدومى (٤٦ ق. م) ، وأقام من تحته هركانوس الحشمونى حاكماً عليهم . ولما مات أنتيباتر تسلم زمام الإدارة ابنه فصايل ، وراح بعد

ذلك الآدوميون من ناحية يقودهم فصايل ، والحشمونيون من الناحية الأخرى يقودهم هركانس ، يقتتلون فى شوارع المدينة . وكان النصر سجالا بينهم .

وتمكن هيرودس بعد قليل (٣٧ ق م) من إقناع روما بأنه مخلص لها . فنصبته ملكاً على اليهود . إنه آدومى الأصل . اعتنق الديانة اليهودية ثم خرج على المكابيين انتقاماً لأبيه الذى قتله هؤلاء . وأمده أنطونيوس بالجند . فقضى على المكابيين . وقتل آخر ملوكهم (أنتيكانوس بن أرسطوبولس الثانى) . وراح يدير هيروساليا باسم روما .

إنه رجل حرب وكفاح . وهو ظالم . يستسيغ كل شىء فى سبيل الوصول إلى غاياته ؛ حتى إنه قتل امرأته وثلاثة من أولاده[1] .

ورغم أنه رمم الهيكل (١٨ ق م) إلا أن اليهود كرهوه . إذ أنه استأصل شأفة المكابيين وكانوا يعتبرونه أجنبياً . حاول أن يوفق بين اليهود والرومان . ولما فشل فى مهمته شايع الرومان ضد قومه . وساعدهم على توطيد أقدامهم فى البلاد . وكان يُضحك قومه اليهود تارة ، وطوراً يبكيهم . ولقد أصاب المدينة على عهده قحط شديد . فجاع الناس . وحاول تخفيف وطأة المجاعة بالحبوب وزعها على السكان ، وبالأموال أنفقها على المشروعات العمرانية قاصداً تشغيل العمال . إنه هو الذى أجرى الماء فى القناة الكائنة بين برك سليمان وهيروساليا (٣٠ ق م) . وهو الذى بنى القلعة الكائنة بباب الخليل . وكان له على مقربة منها قصر كبير . وقد شاد الحصن المعروف بـ (أنطونيا) . كما شاد عدداً آخر من الحصون والأبراج والهياكل والتماثيل . وسكت على عهده نقود . وفى آخر سنة من سنى حكمه ولد السيد المسيح فى بيت لحم . وكان قد أمر بقتل كل طفل يولد فى بيت لحم . ولهـذا هربت به أمه إلى مصر ، خشية أن يبطش به ذلك الملك العنيد الجبار . وفى السنة التى تلتها مات هيرودس بعد

(١) (تاريخ سورية) للمطران يوسف الدبس . ج ٢ ص ٢٩٦ .

أن عاش فى دست الحكم أربعين عاماً .

ولما مات هيرودس (٤ ق م) عهد الرومان بالحكم لولده (أرشيلاوس) . وعجز هذا عن إدارة البلاد فقامت فيها قلاقل وثورات . وطغى كثيرون من رؤساء الأحزاب ، فنادوا بأنفسهم ملوكاً . واستنجد الوالى بحاكم سوريا فاروس وبالحارث ملك العرب . فأنجده كل منهما بعشرين ألف فارس . فأخمدت الثورة ، وأخذ الرومان من اليهود ألف أسير ، فقتلوهم ؛ وذاق اليهود الذل مرة أخرى . فطلبوا من روما جعل بلادهم إقليماً رومانياً . وكان لهم ما أرادوا . إذ جاء الرومان واحتلوا البلاد من جديد . ولكنهم فى هذه المرة اتخذوا (قيسارية) عاصمة بدلا من هيروساليما . وقد تم ذلك على عهد أغسطس قيصر .

راح الولاة الرومانيون بعدئذ يتعاقبون على كراسى الحكم . وإنا لذاكرون منهم : كوبونيوس (٦ — ٩ م) ماريوس أمبيفيوس (٩ — ١٢ م) إينوس روفوس (١٢ — ١٤ م) فاليريوس غراتوس (١٤ - ٢٦ م) بيلاتوس بونتيوس (٢٦ — ٣٦ م) وعلى عهده صلب السيد المسيح . وكان على عرش روما يومئذ الملك طيباريوس قلوديوس .

كانت العلائق متوترة بين الرومان واليهود إلى درجة أن هؤلاء استقبلوا الوالى الرومانى بيلاتوس بوجوم . ووقعت فى هيروساليما ، بعد ذلك ، حوادث كثيرة . منها أن الكهنة رفضوا الدعوة التى وجهها إليهم بيلاتوس . ووصف هذا اليهود بقوله[1]: إنهم يضحون بكل غال ورخيص فى سبيل مصلحتهم . ووصف هيروساليما بأنها « عش الدسائس والفتن » . . .

كانت هذه يومئذ ذات شوارع ضيقة ، وطرق مرصوفة رصفاً سيئاً . موارد المياه والمجارى فيها رديئة . والأمراض منتشرة انتشاراً فظيعاً . وكان الهيكل

---

(١) رسائل بيلاتوس ص ٥١ — ٦١ .

الذى عمره هيرودس قائماً . وحول هذا الهيكل سور . وكان الرومان يحرمون على جنـــدهم أن يتخطوا السور . وكانت الحامية الرومانية فى المدينـــة ضعيفة بحيث كان بيلاتوس يضطر لاستنجاد زميله فى سوريا كلما حدثت فتنة .

ولقد أنشأ بيلاتوس طريقين ، طريقاً تربط هيروساليا بالشمال والساحل . وأخرى تربطها بأريحا وغور الأردن . وكانت أريحا يومئذ ذات أهمية تجارية .

وكان أعظم عمل قام به أنه بنى قناة الماء الممتدة من برك سليمان إلى المدينة ، وأجرى فيها الماء . وكان سكانها الذين بلغ عددهم يومئذ خمسين ألفاً يقاسون ، قبل ذلك ، مر العيش. ولم يكن لهم فى المدينة سوى بضع آبار . ورفض اليهود . رغم ما كانوا يقاسونه من عذاب وعطش ، أن ينفقوا فلساً واحداً من خزائن الهيكل على مشروع الماء . وثاروا . إلا أن بيلاتوس أخمد ثورتهم ، ونهب خزائنهم ، وعمر القناة رغم أنوفهم .

تولى إدارة المدينة بعدذلك الوالى الرومانى مرشلوس (٣٧ م) وهيرودس أغريبا (٣٧ — ٤٤) حفيد هيرودس الكبير . وعلى عهده أنشئ حى (بيزيتا) المكون من الأحياء المعروفة فى يومنا هذا بباب حطة والسعدية وباب العمود . وشرع فى بناء السور الثالث . ووقعت بينه وبين الحارث ملك العرب حرب بسبب امرأته (بنت الحارث) غلب فيها على أمره . فغضبت روما عليه ، ونفته . وفى عام ٤٤ بعد الميلاد حكم المدينة وال رومانى اسمه كسبيوس فادوس. وعلى عهده حدثت قلاقل فى البلاد . فاضطرب حبل الأمن ، وانتشرت الفوضى ، وعم الجوع ، وساد القلق . وحدثت وقائع بين اليهود وبين خصومهم العرب والآدوميين . فانتصر الوالى للعرب عند ما أيقن أنهم على حق . وأراح البلاد من المشاغبين .

ولكن يظهر أن اليهود رفعوا شكواهم إلى روما . فأقالته ، أو استقال . فخلفه فى الإدارة طيباريوس إسكندر (٤٦ م) . وهو من اليهود المرتدين وكان أول عمل قام به أن قتل اثنين من زعماء اليهود ، لأنهما حرضا قومهما على الثورة .

وفى زمن خلفه فنتديوس قومانوس (٤٨ م) ثارت فى هيروساليما فتنة بسبب كلمات فاه بها أحد الجنود الرومانيين ؛ فعدها اليهود احتقاراً . حاول قومانوس إقناع اليهود أنه لم يكن المسبب لذلك ؛ ونصحهم بالإخلاد للسكينة . ولما لم ينصاعوا لأمره أمر الجند أن يكونوا على أهبة الاستعداد ؛ فظن اليهود أن الجند سيهاجمونهم . فهربوا . وداس بعضهم على بعض فى شوارع المدينة الضيقة ؛ فمات منهم كثيرون .

بعد قومانوس تولى الإدارة فلوديوس فيلكس . ووجد هذا الفوضى ضاربة أطنابها فى هيروساليما ، وفيما حولها من البلدان . وكان فيها عدد غير قليل من الزعماء الطامعين : دينهم النهب والسلب وقطع الطرق . فساق عليهم جنده ، وشتتهم ، وقتل منهم زهاء أربعمئة شخص . وعلى عهده قامت خصومات بين الشعب اليهودى وبين كبار حاخاميهم . ووصل هؤلاء الحاخامون إلى درجة من الطمع والنفوذ نهبوا فيها البيادر ، وجمعوا الأعشار لأنفسهم ؛ حتى إنهم لم يبالوا بالفلاحين والفقراء : سواء أماتوا جوعاً أم بقوا على قيد الحياة .

بعد فيلكس تولى الإدارة فستوس (٦٠ م) . وكان هذا حازماً . فتمكن من السيطرة على اليهود والثائرين . ومن التدابير التى اتخذها أنه نصح نيرون الملك ، أن يعتقل رئيس الكهنة وخازن الهيكل وعدداً من الكهنة أنفسهم . فعمل الملك بنصحه . وأرسلهم إلى روما . وهناك احتفظ بهم رهينة . فهدأت الفتن . ولم يقم اليهود بأى نوع من أنواع الشغب طيلة وجود فستوس على رأس الحكم . ولكن حكمه لم يدم طويلا . إذ مات بعد عام (٦١ م) .

ولقد ثارت الفتن من جديد على عهد خلفه البينوس . وكان من سوء حظه — على حد قول المؤرخ بالمر — أنه صادق الحاخام الأكبر حنان . فاختطف اليهود الفوضويون ابنه (أى ابن الحاخام حنان) العازر . فوافق البينوس على إطلاق سراح عشرة من الإرهابيين المعتقلين لديه كفدية لخلاصه . وتكررت حوادث الخطف وإطلاق سراح المعتقلين . وكان أن تم يومئذ (٦٤ م) ترميم الهيكل . فوجد ثمانية عشر ألفاً من العمال أنفسهم من غير عمل . فانضم هؤلاء إلى المساجين الذين أطلق سراحهم . فامتلأت شوارع المدينة بالعمال العاطلين والعصابات المسلحة وأتباع الحاخامين المعزولين . واستخدم البينوس العدد الكبير من هؤلاء العمال العاطلين فى رصف شوارع المدينة بالحجارة ، على أمل أن يرضيهم ويلهيهم ، إلا أن الفوضى ظلت منتشرة . عندئذ غضب البينوس . فأنزل فى اليهود جميع أنواع العقاب . فساد القلق وانتشر الخوف وعمت البلوى . وكانت النتيجة أن وصف المؤرخ اليهودى المشهور يوسيفوس عمل البينوس بقوله « إنه ليس ثمة نوع من أنواع الذنوب والآثام إلا كان له دخل فيه . . . »

بعد البينوس تولى الإدارة جيسيوس فلورس (٦٥ م) . وعلى عهد هذا أيضاً حدثت فى هيروسليما حوادث شغب كثيرة . واضطرابات دامية ، وسادت الفوضى معظم أنحاء البلاد . وبدأت هذه فى قيسارية بين اليهود والسوريين . فاقتتل الفريقان من أجل قطعة من الأرض يملكها أحد السوريين وأراد اليهود أن يملكوها لأنها واقعة أمام كنيسهم . وطلبوا من فلورس أن يملكها باسمهم ، واعديه برشوة قدرها ثمانية تالنت . إلا أنه رفض التدخل قائلا : الناس أحرار فيما يملكون . فاحتكم الفريقان إلى السلاح . وغلب اليهود . فانسحبوا من المدينة ، وراحوا يستعدون للثورة . ولكن فلورس تمكن من إخماد ثورتهم : فبطش بهم . وقتل منهم — على حد قول المطران دبس — ثلاثة آلاف وستماية رجل .

وحاول اليهود أن يلجأوا إلى سلاح الجمال . فأرسلوا إلى الوالى فيرونيكة أخت أغريبا . وكانت هذه من الجمال على جانب عظيم . ولكنها عبثاً حاولت أن تقنع فلورس كى يقف أعمال النهب والسلب . ذلك لأنه اختبر من حيل اليهود ومكرهم ما لم يختبره الآخرون . فرفض طلبها . وظلت أعمال النهب والسلب والقتل سائرة فى قيسارية . فقتل من اليهود عشرون ألفاً فى يوم واحد . وقامت مذابح مثلها فى المدن الأخرى .

ولم تنج هيروساليما من الثورات والاضطرابات بعد ذلك بسبب كره اليهود للرومان . وكان الرومان تارة ينزلون باليهود أشد العقاب ، وطوراً يجنحون إلى الرأفة . ولما رأوا أن هذه السياسة جعلت اليهود يطغون ، إذ ساد الشر ، وعم الفسق ، وفقد الأمن ؛ قرروا أن يقضوا عليهم قضاء تاماً . فأصدر نيرون أمره إلى قائده فلافيوس فسباسيان . وجاء هذا (٦٧ م) على رأس جيش مؤلف من ثلاثة فيالق (٦٠,٠٠٠ مقاتل) . ولكنه اضطر للرجوع قبل أن يحتل هيروساليما . إذ كان نيرون قد قضى نحبه ، وكان عليه أن يرجع إلى روما ليتولى العرش من بعده . فتولى القيادة ابنه تيطس .

حاصر تيطس المدينة (٧٠م) وكان الرومان يومئذ يسمونها (سوليموس) وكانت محاطة بالأسوار . وكان جيشه مؤلفاً من أربعة فيالق . منها ثلاثون ألفاً من الجنود النظاميين . وكان فى عداد هذه الحملة فرقة من متطوعى الأقباط (عرب) ؛ فشد الخناق على المدينة وقتل من سكانها خلقاً كثيراً . وحرق الجند الهيكل . ودكت الأسوار . وهدمت المنازل . وامتلأت الشوارع بجثث القتلى . وعانى الشيوخ والنساء والأطفال ما عانوا من جراء الخوف والجوع . وأكل الناس الكلاب والجرذان والحشرات . وذبح بعضهم أبناءهم وأكلوا لحومهم . وقدر المؤلف اليهودى يوسيفوس الذى شهد الحصار عدد القتلى بمليون نسمة . وقيل إنهم ستمئة ألف . وعند ما سقطت المدينة فى يد تيطس أسر من أهلها من أسر .

وبيع من بيع فى سوق الرقيق .

وقصارى القول : أصاب اليهود على يد تيطس ما أصابهم من ذل وهوان لم يعرف التاريخ لها مثيلا . وحقت عليهم نبوءة أرميا الذى قال : (الذين إلى الموت فإلى الموت . والذين للسيف فإلى السيف . والذين للجوع فإلى الجوع . والذين للسبى فإلى السبى .)

ولقد هجرت سوليموس بعد احتلالها من لدن تيطس . فلم يبق فيها سوى حاميتها الرومانية . وبعد قليل (٨٠ م) رجع إليها المسيحيون الذين كانوا قد نزحوا عنها ، وأما اليهود فقد حظر عليهم الرجوع إليها .

وعاد اليهود إلى أعمال الشغب فى عهد الإمبراطور تراجان (١٠٦ م) إذ تمكن يومئذ عدد كبير منهم من الرجوع إلى سوليموس بسبب ضعف الحامية فيها ، وثاروا . ولكن الحاكم الرومانى (لوقيوس كوئيوس) أخمد ثورتهم .

ولما تولى أدريانوس عرش الرومان (١١٧ — ١٣٨ م) اعتزم أن يقضى على الشعب اليهودى الذى كان لا يهدأ له بال دون أن يقوم بنوع من أنواع الشغب . فاعتزم قلب المدينة إلى مستعمرة رومانية . وأقام عليها أخا زوجته (أكيلا) . فحظر هذا على اليهود الاختتان ، وقراءة التوراة ، واحترام السبت . فثار اليهود ثورتهم المشهورة بقيادة (بارقوخيا) . وقامت فى سوليا (١٣٥ م) اضطرابات دموية لم يسبق لها مثيل . واستبدلت روما حكامها مرتين فى عام واحد . فجاء أولا (تورنوس روفوس) ثم جاء (يوليوس سيفيروس) فاحتل هذا المدينة وقهر الثوار . وذبح بارقوخيا . وقتل من اليهود يومئذ ٥٨٠,٠٠٠ نسمة بحد السيف . هذا غير الذين ماتوا جوعاً أو مرضاً أو حرقاً بالنار . ومن لم يمت منهم طرد من المدينة . وتشتت اليهود بعدئذ تحت كل كوكب . ولكى ينسى اليهود سوليا أمر أدريانوس بتدميرها . وأنشأ مكانها مدينة جديدة أسماها (إيليا كابيتولينا) . وكانت هذه يومئذ قرية صغيرة تابعة لقيسارية من جميع النواحى

الإدارية والسياسية والاقتصادية والدينية .

واضطهد أدريانوس المسيحيين أيضاً ، فأمر (١٣٥ م) بإجلائهم عن الكنيسة[١]. كما أمر بردم المكان بالتراب والحجارة وبنى فوق الجلجلة والقبر هيكلين وثنيين . ونصب فوقهما تمثالى المشترى والزهرة .

وبنى أدريانوس سوقاً فى المكان المعروف الآن بباب العمود . وأقام هناك أروقة وأعمدة كثيرة قيل إنها كانت تمتد إلى جبل صهيون . ومن هنا جاء الاسم المعروف : باب العمود .

كانت اللغات المستعملة فى إيليا ، على عهد الرومان ، الآرامية ، والعبرية ، واليونانية ، واللاتينية ، أما اللغة العبرية فقد كانت لغة اليهود ، واليونانية لغة الطوائف الأخرى . وأما اللغة اللاتينية فكانت لغة الحكومة الرسمية ، وأما اللغة الآرامية فقد كانت لغة التخاطب بوجه عام . ولقد فرض الرومان على البلاد الجزية وأنواعاً أخرى من الضرائب التى عادت على روما بالغنى وعلى البلاد بالفقر[٢] .

ولقد ترك الرومان فى إيليا وغيرها من البلدان كثيراً من آثار العمران كالمعابد والحصون والطرق والصهاريج والمجارى والسدود والأشجار والجسور . غير أن معظم هذه الآثار أصابه البلى ، بسبب الحروب والثورات . وقضى على البقية الباقية منها عند ما احتل الفرس إيليا (٦١٤ م) . وكان ذلك قبيل الفتح الإسلامى .

---

(١) (تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية) لشحاده خورى ونقولا خورى . ص ٧

(٢) (خطط الشام) للمرحوم محمد كرد على . ج ٥ ص ٤٧ .

القدس البيزنطية

(٣٣٠ م)

عندما تولى قسطنطين عرش الأباطرة (٣١٣ م) تنفست النصرانية الصعداء وكانت قبل ذلك مضطهدة . ولم يقف هذا عند حد السماح لها بالانتشار فى مملكته ، بل تنصر هو بنفسه . وتغلب على خصمه ليسينيوس ، فأصبح القائد غير المنازع للمملكة الرومانية فى الشرق والغرب[١] وأقام على أنقاض بيزانس[٢] مدينة جديدة أسماها القسطنطينية (٣٣٠ م) . وأصبحت إيليا مدينة بيزنطية تابعة للقسطنطينية .

ولم يمض زمن طويل حتى زارت أمه الملكة هيلانة إيليا (٤٢٦ م) وبنت فيها كنيسة القيامة (٣٣٥ م) وخربت هيلانة البناء الذى كان على الصخرة ، وجعلتها مطرحاً لقمامات البلد عناداً لليهود[٣] . وفرض قسطنطين على اليهود أن يتنصروا . فتنصر فريق منهم ؛ ومن لم يتنصر قتل ؛ أو غادر البلاد[٤] .

ولما اعتلى جوليان الجاحد العرش (٣٦٠ م) تنفس اليهود الصعداء ، وكانوا قبل ذلك مضطهدين . فألغى هذا جميع القوانين التى صدرت ضدهم وراح اليهود يتسللون إلى المدينة من كل صوب . وأمر جوليان بإعادة بناء الهيكل . وعهد بذلك إلى أحد رجاله البينوس . ولكنهم ما كادوا يحفرون الأساس حتى

---

(١) انشقت هذه المملكة إلى قسمين ، المملكة الغربية وعاصمتها روما . والمملكة الشرقية وعاصمتها بيزانس .

(٢) إستانبول .

(٣) (صبح الأعشى) للقلقشندى . ج ٤ ص ١٠١ .

(٤) (تاريخ القدس الشريف) لسركيس . ص ١٥٦ .

اندلعت النيران من تحت الأرض . وسمع انفجار شديد فهرب العمال . ووقف العمل . فذهب الناس فى تفسير هذه الظاهرة مذاهب شتى . فمنهم من اعتبرها دليلا على غضب السماء . ومنهم من قال إن المسيحيين أعدوا النار ليحولوا دون الهيكل . ومنهم من فسر ذلك باحتراق الغاز الدفين وهو سام . ومات بعدئذ جوليان . فخلفه ثيودوسيوس . ولما توفى هذا (٣٩٥ م) اقتسم ولداه المملكة ، وجعلاها مملكتين . فراح أركاديوس يدير المملكة الشرقية . وهونوريوس الغربية . وفى (٤٥١ م) انقسمت الكنيسة أيضاً ، فأصبح هناك كنيستان ، شرقية وغربية ، وكانت إيليا يومئذ من أتباع الثانية .

وفى (٥١٣ م) أقام الملك أنسطاسيوس على إيليا حاكماً يدعى أوليمبوس . وعلى عهده ثار الرهبان . فأقاله الملك ، وولى مكانه أنسطاسيوس .

وفى (٥٢٧ م) توفى الملك يوستينوس ، وخلفه يوستنيانوس (جوستانيان) العظيم . وعلى عهده ثار اليهود والسمرة . فأطفأ ثورتهم . وشتت شملهم . وأنشأ هذا عدداً من الكنائس والأديار فى إيليا وفى ما حولها من الجبال والأودية .

وبنى ، فى موضع المسجد الأقصى الحالى ، كنيسة باسم العذراء . وقرر المجلس الكنسى الخامس الذى التأم على عهده (٥٣ م) جعل إيليا مقراً للبطريركية .

ولكن لم يمض زمن كثير حتى دب الخلاف بين رجال الدين المسيحى فراحوا يتنازعون فى مجادلات دينية . وراحت البلاد تتدهور إلى الوراء .

وتولى العرش بعد ذلك أباطرة كثيرون . إلا أن معظمهم كانوا من الضعف بدرجة أنهم لم يستطيعوا درء الشر عن بلادهم ، فاستغل الفرس الفرصة . وغزوا البلاد . وفى عهد هرقل (٦١٠ — ٦١٤ م) كان الضعف قد دب فى مملكته

إلى درجة أنه لم يستطع الوقوف فى وجه كسرى[1] الذى أرسل عليهم جيشه بقيادة (مرزبة خزروية) فاحتل هذا إيلياء (٦١٤ م) وذبح من سكانها تسعين ألف مسيحى . وهدم الفرس كنيسة القيامة ، كما هدموا معظم الكنائس والأديار . وأخذوا البطرك زخريا إلى بلادهم أسيراً . ويعتقد بعض المؤرخين أن الفرس قاموا بهذه الأعمال بتحريض من اليهود، وأن هؤلاء قتلوا من المسيحيين أكثر مما قتل الفرس .

وأصاب الناس يومئذ جوع شديد . حتى قيل إنهم أكلوا الجيف وجلود البهائم .

ولكن هرقل عاد ، فجمع قواه . وانتصر على الفرس (٦٢٧ م) . ثم اصطلح الفريقان . فأعيد الأسرى إلى بلادهم . كما أعيدت الغنائم التى نهبها الفرس . ودخل هرقل إيليا (١٤ أيلول ٦٢٩ م) حاملا على كتفه خشبة الصليب التى استردها من الفرس . وانتقم من اليهود، فراح يقتلهم بالمئات . ولكن الضعف كان قد دب فى مملكته بدرجة لم يستطع معها مقاومة المسلمين الذين جاءوا بعد قليل ، فأخذوا البلاد منه .

هناك فى مادبا من أعمال شرق الأردن قطعة صغيرة من الأرض مرصوفة بالفسيفساء ، تمثل خارطة فلسطين فى ذلك العهد ، وقد عثر المنقبون على هذه القطعة بين أطلال كنيسة قديمة ، ويرى الناظر إليها موضع إيليا محاطة بسور ، يخترقها من الشمال إلى الجنوب شارع تقوم الأعمدة على طرفيه . وينتهى هذا الشارع عند الباب المعروف فى يومنا هذا بباب العمود .

---

(١) جاء فى كتاب (أبو بكر الصديق) للأستاذ محمد حسين هيكل ص ٢٠٨ أن المقصود من الآية الكريمة التى أنزلها الله على نبيه : « ألم . غلبت الروم فى أدنى الأرض . . . » هو هذه المعركة .